الفصل الرابع
(نهر حتي المصب)

حينما فتح عينيه في الصباح لم يتذكر في أول لحظات ما حدث بالأمس قبل أن تستعيد ذاكرته الأمر بسرعة، كان ضوء الشمس قد داعب ملامح وجهه، شعر بأشعتها الدافئة تلمسه، لو كان في ليلة أخري لابتسم في طمأنينة وربما داعب عانته قليلا ولكن هذا الضوء الساخن يعني فقط أنه لم يستيقظ لصلاة الفجر.

تري هل الله لم يتقبل عودته ؟

أم ان الذنب أثقله عن القيام للصلاة ؟

أم انه كان فقط مرهق جسديا وذهنيا وإستسلم لطبيعة جسمه البشرية فلم يسمع صوت جرس المنبه، لا يعلم ولكنه شعر بالضيق يجتاحه، قام بسرعة وتوضأ ثم صلي الصبح قضاءًا، لا يشعر بنفس خشوع الأمس، ماذا يفعل الأن؟ يشعر أنه لن يستطيع أن يقابل زملائه بالعمل أو حتي جيرانه بوجهه الجديد، بالطبع لن يعلم أحد بما حدث بينه وبين (ريناتا) بالأمس ولكن مظهره الجديد يوحي بالإنحراف ، سيسأله الجميع عن لحيته أين ذهبت، هل سيخبرهم أنها ذهبت إلي البالوعة كما ذهب شرفه.

عجيب أمر الشرف، يساوي فيه الدين بين الرجل والمرأة بينما يفرق فيه العرف بينهما، المرأة لو إرتكبت أقل قدرا من المعصية كأن ارتدت ثوبا ضيقا أو ضحكت

بصوت خليع سلطت عليها الألسنة باللعن ترجمها بينما الرجل يمكن أن يكون متزوجا وذو اولاد ويرتكب خطيئة الزنا ولا يملك المجتمع له سوي إنتحال الأعذار.

كان يحلو له أن يسأل صديقه (عمر) عن فلسفته التي يحلل لنفسه بها ممارسة الرذيلة وكان (عمر) يتشدق بعبارات ما قرأها علي الانترنت تقول :

كنت اخاف في البداية من فعل الخطيئة وكنت أسمع المرأة تقول كيف أنهم يعدون المراة التي تضاجع الف رجل عاهرة والرجل الذي يضاجع ألف إمرأة بطل حتي قرأت تلك العبارة إن القفل الذي ينفتح لأي مفتاح هو قفل سيء أما المفتاح الذي يفتح ألف قفل فهو مفتاح خارق وأنا مفتاح خارق.

كان (عمر) يلقي بعبارته ويضحك، هذا الصديق المتدين العربيد يسخر من أدائه بالمعصية ويجاهر بها كذلك وكأن الأمر عدم تقدير لشعائر الله.

لكن حقيقة الأمر أن شرف الرجل مثل شرف المرأة ، لا يصح التفريط به، وجزئه مثل كله، لماذا لا يسامح الرجل زوجته إن كانت قد قبلت أحدا ما من قبله بينما تسامحه هي وهي تعرف أنه ربما قد عاشر أخريات معاشرة كاملة من قبله.

كان قد أقترب بسيارته من المستشفي ، فتقدم نحو مكانه المفضل لصف السيارات ثم ترجل منها ودخل بسرعة، كانت موظفات الإستقبال أول من لاحظن منظره الجديد، علت وجههن إبتسامات وتندرت عليه إثنتان من بعيد بينما نظرت له الثالثة في إعجاب واضح.

لم يكن منظره قبيحا ولا وسيما، كان عاديان ذو بشرة بيضاء، وملامح رفيعة ،عيناه عسليتان ،دقيق الأنف وغليظ الحاجبان، وكانت لحيته تضفي عليه بضع سنوات إضافية ولكنه الأن إستعاد تلك السنوات مرة أخري، جميل أن يعود الإنسان بالزمن شكلًا ولكن الأجمل أن يعود به موضوعًا.

حياته وأفعاله وأقواله مثل النهر المتقدم في مجراه، لا تجري المياه في نفس البقعة مرتان ، ولا يعود الماء للمنبع مرة أخري، هو يسير حتي المصب وبالتالي ما حدث بالأمس بينه وبين (ريناتا) لن يمحو ولن يستعيده ليغيره،

ألقي التحية علي موظفات الإستقبال اللاتي سألنه عن سر تغير مظهره وإن أبدين إعجابا بمظهره الجديد، تعمدت الفتاة التي نظرت له بإعجاب أن تصافحه في حرارة وأرسلت بضغطة إصبع صغير رسالة إلي يده أنها تود أن تلمس ما هو أكثر.

سحب يده بسرعة، لقد خرج لتوه من معصية ولا يزال ضعيفا وبدت بشائر عدم قبول التوبة تلوح أمامه فلا يريد أن يزيد علي ذنوبه ذنوب بإقتراف علاقة جديدة مع فتاة مثلها.

كانت فلبينة ممشوقة القوام من النوع الذي يعجبه في المعتاد وبالتأكيد هي تشتهيه الأن ،بعض أبناء هذ الجنسية متزوجات أو مرتبطات في بلادهن فإذا اتين الي بلاد الغربة تظاهرن بأنهن خاليات حتي لا يضعن علي انفسهن الفرص.

ذهب ليباشر أعماله الروتينية التقليدية وتفقد عدد من الحالات التي تحتاج لإهتمامه حتي انتصف النهار ثم تناول وجبة الغداء في مقصف المستشفي قبل أن يلوذ بمكتبه منهكا وهناك أخذ يفكر من جديد في ليلة الأمس

إن لم يقبل الله عودته وتوبته ماذا عليه ان يفعل ؟

ولكن لما لا يقبل الله توبته ؟ هو لم يسرق ولم يشرب خمرا وحتي في تلك يقبل الله التوبة، هو لم يهز عرش الرحمن بلواط ولم يقتل نفسا ، ولم يمارس سحرا ولم يشرك بالله شيئا، ولكن مهلا ، من قال أنه لم يشرك بالله، لقد ذكر الله في كتابه العزيز أن الإنسان يمكن أن يتخذ إلهه هواه، هو سعي إلي طلب الشهوة وجعلها إلها له ونسي خالقه في غمرة اللذة المستباحة

إذن هو يمكن ان يكون قد كتب من اهل النار الأن ؟

ولكن حتي السارق له توبة

والقاتل له توبة

وحسبما يعلم الزاني له توبة

ولكنه لم يستيقظ لصلاة الفجر وتفسيره لذلك أن الله قد كره لقائه، ماذا عليه ان يفعل؟ هل يطرق باب الله مرة أخري؟ نعم سيفعلها، سيطلب صلاة الفجر الليلة التالية، سيمكث علي باب الله حتي يأذن له بالدخول، كم سيمكث ؟ لا يدري، ولكن لمدمن الطرق علي الأبواب أن يلج، سيظل يفعلها كل ليلة والله كريم منان لن يدعه علي الباب كثيرا ، كان يدعو الله بغمغة حتي لا يسمعه احد بأن يغفر له، وتمني

لو أجاد العربية حتي يخاطب الله بكثير من حسن أدعية الصحابة والتابعين من السلف الصالح ولكنه علي يقين أن الله يحب الدعاء بأي لغة كان حتي لو لغة العيون المنكسرة والقلوب الخاشية

ولكن ماذا لو تيقن له ان الله لم يتقبل توبته وإنه من المطرودين من رحمة الله ؟

الخاطر صعب علي نفسه ، معني الطرد من رحمة الله أنه صار هو وإبليس سواء، لا يمكن أن يصدق أنه وهو المؤمن الموحد المجتهد في العبادة طوال ثلاثين عاما يذهب الي النار ليجاور الكافر والمشرك مثله مثلهما، نعم يعلم أن النار دركات كما هي الجنة درجات ولكنه كونه في درك أعلي لا يعني أنه أفضل حالا، الناس يتمنون الجنة حتي لو مكثوا علي الأبواب، ولو منح أحدهم أقل درجة في الجنة لكفته ولكن لو منحت أعلي درك من النار وهي أقل درجات العذاب فهذا ليس بالشيء الحسن، إنك لا تزال تعذب، هو لا يصبر علي حرق شمعة لأصبعه، فما بالك بنار مسعرة منذ الألاف السنين.

امتقع وجهه عند ذلك الخاطر وهو يهمس لنفسه :

– ولكن المؤمنين ليسوا مخلدين في النار ، سيمنح الله العفو لبعضهم بعد فترة.

ولكن الأمر ليس بالمسري عنه، ما مقدار تلك الفترة هل هي عامان ، ثلاثة ، عشرة، الف عام، مليون عام، النار والجنة المكوث فيهما أبدي أي أنه إلي ما لا نهاية، وهذا معناه أنه يمكنه ان يعذب لعدة ملايين من السنين ثم يذهب للجنة ،هل يحتمل هو ثانية واحدة في النار.

سرت قشعريرة في جسده وهو ينقر بعصبية علي سطح مكتبه، لا يستطيع تجاهل الأفكار التي تأتيه ، يتعجب من شأن الغافلين في الدنيا والمغرقين في الذنوب، يعصون ويعصون بلا توبة، يغترفون من بحار الشهوات ويسبحون في بحيرات الخطايا بلا وجل ولا تأنيب من ضمير، لقد سمع عن إناس يهتكون محارمهم الأقربين، قرا قصة عن رجل إقترف الفاحشة في صحن مسجد، هل يساوي هو بهؤلاء ؟

حسنا وليفترض ان الله لن يغفر له، ماذا عليه ان يفعل الأن ؟هل يلوذ بأعالي الجبال هاربا من الندم أم يغرق نفسه في الشهوات مثل الثوب الذي انقطع ولا يجوز رتقه فلا يضره الكثير من الثقوب الإضافية ؟

لا يستيطع أن يستسلم لذلك الخاطر، يريد أن يطرد الشيطان لا أن يطرده الشيطان، تسائل في قرارة نفسه،هل حينما كان هو و (ريناتا) سويا كان الشيطان ثالثهما ؟ أم هو وهي ونفسه ؟ ربما كانوا أربعه ؟هو وهي نفسه وهواها، أو خمسة ؟هو وهي ونفسه ونفسها والشيطان؟ لا بل كانوا ستة ؟ هو وهي ونفسه ونفسها والشيطان والله يراقب، الله كان موجودا، ولكن لما لم يمنعه الله من المعصية، لماذا لم يرسل له إتصالا مفاجئا او رسالة تحذير أو حتي يصيبه بمرض يقعده عن اداء الفاحشة.

لكن مهلا، لقد منعه الله كثيرا من قبل، ربما مل الله منه وتركه لنفسه ولكن الله لا يمل ولا يترك المؤمن، إذن ربما الله اعطاه اختبارا وهو قد فشل في ذلك الإختبار بإمتياز.

هل يمكن إعادة الإختبار ؟ بالتأكيد يمكن ، هو لازال في الدنيا ولم يذهب إلي الأخرة بعد، في الدنيا يمكن دائما إداء إختبار إضافي، (وحشي) ذلك العبد الحبشي الذي قتل سيد الشهداء (حمزة بن عبد المطلب) حينما تلاقيا في معركة (أحد) ، كان قتل (حمزة) كبيرة من الكبائر ولكن (وحشي) بعدها أسلم وحسن إسلامه بل وساهم في قتل (مسيلمة الكذاب) مدعي النبوة فيما بعد ، فكفر عن قتله لشخص حسن بقتله لشخص سيء

ولكن في أمر (وحشي) كان الأمر مختلفا، فهو قد أسلم والاسلام يجب ويغفر ما قبله أيا كان، أما هو فمسلم فعليا فما الذي عليه فعله ، هل ينطق الشهادتين بنية الدخول في الاسلام ويلتزم مرة أخري، ولكنه لم يخرج حتي يدخل مرة أخري،، ثم أن الأمر مختلف هو فعل الفاحشة وهو مسلم ويعلم حظرها وذنبها، اذن ليس له الدفع أمام الله بالجهل او بالخطأ مثل (وحشي).

ربما عليه التكفير عن ذنبه بفعل ما يعاكسه ، مثلما فعل (وحشي) ولكن كيف يعاكس حادثة الزنا ؟ ما الذي عليه فعله لن يصلح الأمر زواجه منها وهو لا يريد وهي لن ترغب ، ما الذي يعاكس الزنا، ما الذي يعاكس الزنا، هو العفاف ولكن كيف يفعله ، ما الطريقة ؟

أخذ يفكر كثيرا قبل أن يهتدي عقله لفكرة وهي أن يهدي فتاة او فتي يمارس الفاحشة للطريق المستقيم ، هذا سيعاكس ما فعله وربما يتسبب في الغفران له،

ولكن من وكيف سيهتدي له أو لها ثم كيف سيقنعه وهو الذي فشل في إقناع صديقه الحميم (عمر) في الإقلاع عن ذنبه.

حسنا هناك حل أخر، يمكن أن يعف فتي او فتاة بالتكفل بمصاريف زواجهما ولكن هذا مكلف له ولن يستطيع فعله هنا، ربما بعد العودة إلي (باكستان).

أخيرا أهتدي عقله إلي فكرة ما، حسنا عليه أن يبرهن لله علي توبته النصوح، يجب أن يتواجد في مكان ما متاح له نفس المعصية ويمتنع عنها بملء ارادته، ما الذي يفعله هل يطلب فتاة جديدة ويمتنع عنها ولكن هذا ليس نفس الشيء ، فضلا علي أنه سيدفع مالا من جديد لوقتها وهو لا يريد، حسنا ليتصل بالفتاة نفسها (ريناتا) ويدعوها للعشاء بمنزله، يبدو أنها رغبت بصداقته وحينما يتواجدا معا لن يلمسها بل وربما يهديها علي يده فيعكس حادثة الزنا التي فعلها

تأكد من ظهور رقم (ريناتا) عنده قبل ان يرسل لها رسالة علي الفايبر قائلا :

- مرحبا.

انتظر طويلا دون ان تجيب عليه،حتي مل وانصرف الي استكمال يومه، بعدما انهي نوبة عملة ذهب بسرعة إلي المنزل وتحادث مع زوجته وأطفاله لساعات طويلة قبل ان يخلد الي النوم مبكرا، بينما هو يستعد للنوم جائته رسالة علي الفايبر تقول :

- مرحبا، عذرا كنت منشغلة طوال اليوم فلم أري رسالتك

كانت رسالة من (ريناتا) ابتسم حينما رأها رغما عنه، تسائل بينه وبين نفسه كيف تكتب باللغة الانجليزية وكيف فهمت عبارته ثم قدر أنها ربما تستخدم برنامج ترجمة من نوع ما ، عاد يكتب لها :

– لا عليك ، كيف كان يومك؟

– جيد ، ولكني تشاجرت مع مديرتي اليوم

– لماذا ؟

– لا شيء، فقط انت تعلم أني لا اتحدث الانجليزية وكان هناك زبون يرغبني وحدث بينهماحوار ما لم أفهمه. وتضايقت حينما أنصرف الزبون ولم افهم ما الذي قاله بالضبط.

– العيب ليس منها، أنت يجب عليك تكلم اللغة الانجليزية طالما قررت مغادرة بلادك الي بلاد غريبة

– معك كل الحق، ولكني حاولت تعلم الإنجليزية لسنين وفشلت، حتي الروسية تعلمتها لسنتين وفشلت ،أنا غبية جدا في اللغات مع أني ذكية في باقي العلوم جميعها.

– لابأس، ليس كل البشر متميزون باللغات

– هل تتحدث أي لغة غير الانجليزية ؟

– نعم لغتي الأم ، لغة الاوردو، أنت تتحدثين لغة الباهاسا فقط اليس كذلك ؟

جاوبه صمتها لفترة طويلة حتي ظن أن الحديث أنتهي فأغلق عينيه ونام بعمق، لم يكن يود أن يفوت صلاة الفجر مثلما حدث بالامس، شرب كمية كبيرة من المياه حتي يضمن أن توقظه الحاجة للذهاب للحمام قرب صلاة الفجر كما ضبط منبهه وهاتفه علي موعد الصلاة، لابد أن يفعلها الليلة، سيظل بالباب حتي يرضي الله عنه لحسن طالعه إستجاب جسمه للقيام عند سماع صوت المنبه وقام ليفرغ مثانته التي ألمته قبل ان يتوضأ ويصلي الفجر في خشوع.

بعدما أنهي الصلاة وفرغ من الأدعية قام لمعاودة النوم قليلا قبل الذهاب الي العمل ، تفقد هاتفه في حركة غريزية، وجد رسالة منها أتت متأخرة ، لابد أنها انشغلت بأمر ما أو قاطعها شيء اثناء الحديث ثم عاودت ارسالها حينما فرغت، كتبت له :

– أريد ان اعترف لك بسر ، أنا لست ماليزية، أنا صينية ولكن مديرتي قالت لي ألا اقول أني صينية حتي لا يرخص ثمني في المساومة.

تعجب من مصارحتها له بالأمر وتيقن أنها وثقت به بشكل ما، ولكن كشفها للسر فسر له العديد من الأمور ، تلك الحركة التي تفعلها بلسانها طوال الوقت لم تكن للمداعبة، الصينيون يفعلونها كثيرا كعادة لديهم، كما أن نظامها الشديد وانضباطها في العمل وحفاظها علي النظافة تلك من عادات الصينين الأصيلة

كتب لها علي الفايبر:

– شكرا لك علي مصارحتك إياي، أنا احترمك واعتز بصداقتك أيا كانت جنسيتك.

ترك هاتفه الي جواره ثم استسلم لنومه مرة اخري.

في الصباح التالي استيقظ نشيطا نوعا ما مع وخزة ضمير أقل مما سبق،لقد رضي الله لقائه واستيقظ وربما هذا دلالة علي الغفران ، مر يومه بالعمل عاديا حتي نهايته ، كان الجميع يتعجبون من تركه للحيته ولكن أحد منهم لم يطلب منه العودة لها، قرر العودة لها متي كان مستعدا، طوال اليومين السابقين لم يشاهد أي مواد اباحية من تأثير رغبته في التوبة ولكن شيطانه تلاعب به أخر الليل ليوحي له أن الامتناع المفاجيء عن كل شيء سيؤدي إلي انتكاسة فيما بعد ليعود بعدها لفعل المحرمات ولذا لابأس من قليل من النظر لصور ما، عاد إلي بداياته الأولي القصص الجنسية بإعتبارها أخف ضررا.

كان يعلم لعبة الشيطان التقليدية بجره الي الذنوب عن طريق اصغرها ثم اكبر منها فأكبر منها حتي يجره الي الهاوية ورغم لعبه نفس اللعبة مع الشيطان طوال ثلاثين عاما إلا أنه في كل مره يستسلم لها

قرأ قصة عن علاقة شاب بفتاة أسيوية فتذكر (ريناتا) ، أرسل لها رسالة تقول :

- هل لازلت متضايقة ؟

لم يأته الرد منها فصمت قليلا وهو يفكر ما الذي تفعله الأن ، كانت الساعة العاشرة مساءا، بالتأكيد هي مع رجل ما الأن، تري هل تعامله ببرود أم بحرارة، هل تحب العاهرة مهنتها أم هي مجرد مهنة، بالتاكيد ليس كل الرجال سواء، ربما لن تشتاق بائعة الهوي لرجل سمين ذو رائحة منتنة، ولكن ماذا لو مارست الجنس مع

شاب رياضي وسيم ورائحته طيبة، ربما تتعلق به، ربما تمارس معه الجنس بحب وشغف، بل وربما تمنحه إياه مجانا.

ما الذي تفعله الأن يا تري ؟ هل هي مع شخص أخر، هل هذا الشخص مثله، ربما يكون طبيب أو مهندس أو حتي معلم، تري ما جنسيته وما شكله، هل يوجد جنسيات بعينها تقبل علي الأمر؟ هل هناك فئة عمرية ما تفعلها دون غيرها ؟ يعلم أن بعض كبار السن يفعلونها وهو شيء صعب أن رجل بسن كبير يدفع المال لعلاقة عابرة مع بائعة هوي.

الكثير من الأسئلة زاحمت عقله قبل ان يفيق منها علي رسالة أتته منها بعد نصف ساعة كاملة لتقول :

– لا انا بخير الأن، لكن كما قلت علي تعلم اللغة الانجليزية

– هل انت متفرغة غدا؟

– لماذا؟

– يمكننا تناول العشاء معا ومشاهدة فيلم والحديث مثل أي أصدقاء.

– حسنا لو لم يكن لدي عمل غدا سأخبرك.

– جيد، سأنتظر رسالتك.

أنهي حديثه معها وهو يحاول أن يضع نفسه في موقفها ويري مهنتها من وجهة نظرها، هي تعتبر وظيفتها المشينة تلك شيئا عاديا بل وترغب فيها بشدة وذلك من أجل أن تحصل علي أموال أكثر تساعدها علي معيشتها وعلي تحقيق أحلامها، الأمر

غريب، كيف تتقبل أن تفعل مثل ذلك الأمر مع أي رجل عابر مهما كان شكله وطريقته ، بل كيف تتحمل أي إمرأة ذلك علي الإطلاق.

ماذا عن جدول يومها؟ هل ينتظرن هكذا طوال اليوم منتظرين الرزق الحرام أم يخرجن للسعي له، في (الشارقة) هناك التزام ما ، ولذا لن تفعلها أي فتاة وإلا عرضت نفسها للسجن، في (دبي) الأمر سهل ، يقمن بذلك في أي بار أو كازينو بل وهناك شوارع كاملة مخصصة لذلك، هناك شبكة واسعة أيضا من موظفي الفنادق تتواطيء مع فتيات الليل لتسهيل تلك المهمة لهن.

شعر نحوها بالتعاطف، يكره لها هذه المهنة وفي نفس الوقت يعلم رغبتها للمال، تري بماذا يدعو الله لها ؟ بأن يتيسر رزقها أم يتعسر ، الأفضل أن يدعو الله لها أن يبدلها رزقا خيرا من ذلك ولكن هو عاصي لله، فهل يتقبل الله منه دعائه؟

تفكر في الأمر قليلا، خاطيء يدعو لعاهرة، للوهلة الأولي ظن أن الأمر هذا غريب ولكنه حينما أعاد التفكر فيه ابتسم يعلم ان الله سيقبله منه لأنه من مسكين يدعو لمسكينة.

مضي به الوقت دون أن يشعر بنفسه ، هو متذبذب بين الخطيئة وعدم الخطيئة، أصبح ضعيفا جدا، في الماضي كان متذبذا بين فعل الحسنات وعدم فعلها ثم إنتقل إلي مرحلة اوهن ما بين عدم فعل الحسنات وفعل السيئات والأن توقف عن الحسنات وصار بين فعل السيئات وعدم فعلها.

كان ضوء النهار قد تسلل من خلال زجاج النافذة لينير الغرفه لديه فقام وتحمم ثم أرتدي ثيابه وشرب قهوته الصباحية وهو يغادر الي العمل.

كان يومه في العمل هينا، ليس هناك من مرضي كثيرون، هذه بلاد صحية والناس فيها يشكون من أمراض إفراط الصحة وليس من أمراض الفقراء، لن تأتيه إمراة هنا ضربها زوجها حتي أسقطت حملها ولن تأتيه إمراة لديها فقر دم مزمن ونزيف، يا ليت (باكستان) كانت مثل الإمارات في الصحة

انتبه إلي أن الساعة قد قاربت الرابعة عصرا وتذكر موعده مع (ريناتا) فقام بإرسال رسالة لها ليتأكد أنها مستعدة فأخبرته أن يمر عليها في المكان الذي تسكن فيه.

قدر أنه يجب ان يكون الشخص الذي يذهب هذه المرة فقد انتقل من خانة العملاء إلي خانة الأصدقاء لديها، تري هل لديها أكثر من صديق أم هو فقط ؟

كان العنوان الذي أرسلته له غير ذي بعيد منه، توجه بسيارته هناك، تلك بناية صغيرة بأسفلها محل لبيع الملابس والمفروشات ، رأها تخرج من البناية وهي ترتدي زيا رسميا، لاشك أنها بائعة هناك ورأها تحمل حقيبتها التقليدية علي ظهرها ، تري ما الذي بتلك الحقيبة حتي تحرص عليه علي هذا النحو ؟ ربما هي فقط أدوات عملها، الفتاة يجب أن تكون مستعدة دائما فلا تدري متي ستجد زبون أمامها ، قد تقابله في أي مكان،هذه مهنة يمكن اجراء صفقاتها في اي مكان علي الارض حتي داخل في ملاجيء الحرب تحت قصف المدافع أحيانا.

بدا أنها لم تتعرفه فقد تلفتت حولها في حيرة قبل ان يشير لها بيده لتأتيه مسرعة وقد أشرق وجهها بإبتسامة، إتخذت مكانها إلي جواره في السيارة وهي تصافحه قائلة :

- مرحبا

نطقتها بعربية مكسرة ، هذه الفتاة لن تجيد أي لغة بهذه الطريقة ، أخرجت لسانها كالمعتاد مع كلمتها ولم يعد يندهش للحركة التي تفعلها فهو قد عرف أنها صينية وعليه من الأن توقع كل ما هو صيني ، الغريب أن الإنسان يميل الي التعامل مع القوالب الثابتة، هي اعترفت له بأنها صينية ولذا كل ما ستفعله سيميل الي اعتباره صينيا تقليديا وسيتوقع منها أن تكون صينية في كل شيء، ماذا لو اخبرته ان جذورها أفريقية كان ليتوقع منها الرقص مثل رجال الأدغال السمر حول حلقة نار، تلك ألعاب عقلية تلقائية يمارسها الإنسان بنفسه.

سألته عبر جهازها العجيب :

- إلي أين سنذهب ؟

- إلي منزلي، يمكننا شراء الطعام وتناوله هناك

هزت رأسها موافقة وهي تكرر إبتسامتها، تفكر في قرارة نفسه ، تري هل وثقت به حقا ؟ هي بائعة هوي ، ربما غير محترفة ولكن بالتأكيد مر عليها عشرات الرجال ومنهم الخبيث والطيب، لو دعاها أيا منهم الي الغداء بمنزله ، هل تتوقع أن الأمر سيكون مجرد غداء أم أنه سينتهي إلي شيء أخر ولو أنتهي إلي شيء أخر هل ستطلب الثمن أم ستكون وجبة الغداء هي الثمن ذاته، لا يعرف إلا لو جرب وحاول معها

ولكنه لن يفعل، هو يريديها هناك بين يديه دون أن يفعل شيئا حتي يكفر عن اللحظة التي ضعف فيها أمامها.

عطف في طريقه علي مطعم شهير يبيع الوجبات الجاهزة وسألها ماذا تريد ؟ لم تجيد التعبير عن نفسها، فأسرعت تلتقط القائمة وتنظر الي الصور قبل ان تشير إلي إحداها في سرعة، كانت تطلب وجبة عائلية من الحجم الكبير، الفتاة نحيفة بلا شك ولكن لابد أن شهيتها قوية للغاية، ربما بسبب طبيعة عملها التي تستلزم بذل مجهود عنيف

قاما بالإنتظار دقائق ريثما تم تجهيز طلبهما ثم غادر بها مسرعا إلي منزله، حينما ولجا إلي المنزل بدت الفتاة أكثر تحررا من ذي قبل، أسرعت تتجه من تلقاء نفسها إلي دورة المياه مع حقيبتها، لم تغلق الباب علي نفسها ولا تظن بأنها بحاجة أن تفعل ، هي في مهنة التجرد من الثياب ، إذن أدق خصوصياتها مكشوفة، تلك فتاة تخلصت من قيد الخصوصية منذ زمن.

دلف هو للمطبخ حتي يفرغ الطعام في أطباق ويجهز ملحقات أضافية له، فوجيء بها تخرج من الحمام وهي نصف عارية، فقط تحتفظ بملابسها الداخلية وهي تمسح جسدها بمحارم مبللة ، يبدو أنها تعرقت بشدة وتحاول التخلص من رائحة العرق ورغم أنه راها عارية تماما من قبل إلا انه للعجب وجد نفسه يغض بصره ويصرف نظره عنها إلي الطعام، دلفت خلفه الي المطبخ قبل أن تصيح بعبارة ما بالصينية لم يفهمها ولكن تعبيرات وجهها وصوتها دلا علي دهشتها وإنزعاجها

نظر لها مستفسرا فقامت بترجمة العبارة علي جهازها قائلة :

– ما هذه الفوضي؟

نظر فيما حوله وقد تأكد من صحة عبارتها ، المطبخ فوضوي بشكل كبير، الكثير من الأطباق المتسخة هنا وهناك، بقايا طعام متناثرة، بقع الزيت والدهن علي أسطح المطبخ،هناك رقعة ماء قديمة علي الأرض، هذا كابوس لأي إمراة، لم يكن منظما بطبيعته ولكن في الأيام الاخيرة ونتيجة لتخبطه في حياته لم يكترث كثيرا بنظافة المكان وها هي قد ضبطته بالجرم المشهود.

إعتذر لها وهو يخرج بها من المطبخ حاملا الطعام ومتحاشيا أن ينظر إلي جسدها قد الإمكان، لم تقم هي بتغطية جسدها، هي تعرف أنه قد تعرف عليه بشدة من قبل فلم تخبئه الأن، هو قد أهتدي وهي لم تفعل ولا تريد ان تفعل

جلست الي جواره علي أريكة واسعة امامها مائدة منخفضة وانهمك هو في رص الأطباق بشكل ملائم ومتناسب تاركا لها نصيب الأسد من الغداء، ثم أشار لها أن تأكل، مدت يدها بغير جحل ترفع الطعام بسرعة من فاته موعد إلي فمها، بين حين وأخر تري خضارا لا تعرفه فتقوم بسؤاله عبر جهازها المترجم عن ماهيته ليجيبها عليه أو يريها اسمه بالصينية بإستخدام صور جوجل.

أنهي طعامه قبلها ولكنه تظاهر بأنه يواصل طعامه حتي لا يحرجها وهما يتبادلان الكلام والحديث بين حين وأخر بتلك الطريقة العجيبة، من قال أن هناك مشاكل في

التواصل بين البشر، إن القلوب إذا ألفت قام العقل علي الفور بالتواصل حتي ولو بدون كلمات.

حينما أنتهت قام برفع الطعام وسألها إن كانت تود أن تشرب قدحا من الشاي معه، رحبت بحبور شديد ولم يتعجب فهي صينية علي كل حال وبلدها منشأ زراعة الشاي في العالم.

قام بإعداد قدحين من الشاي الأخضر لهما ، كانت تشربه بدون سكر علي خلافه هو ، تناولت القدح منه وهي تمنحه إبتسامة عذبة علي اهتمامه بها وهي تقول عبر جهازها :

- شكرا علي كل شيء فعلته.

- هذا لا شيء.

- أنت صديق رائع وأنا مسرورة بمعرفتك

- وأنت أيضا صديقة رائعة

- لدي فقط تعليق صغير عليك

- ما هو ؟

- أنت إنسان غير صحي

- كيف؟ أنا أهتم بصحتي ، أنا طبيب

- لم أعني ذلك، الصحة تأتي في صورة مختلفة، أنت فراشك غير مهندم ومطبخك غاية في القذارة وحتي حمامك ليس بأحسن حالاته ، لا اظن أنك تمارس الرياضة

كذلك كما أنك حزين علي الدوام وتشعر بالضغوط ، كل هذه ظروف غير صحية ليحيا بها الإنسان.

- صدقت، سأحاول أن أتغير تدريجيا.

- لا تفعل ذلك من أجلي ، بل من أجل نفسك.

- حسنا، أنت فتاة تعرفين الكثير وكلامك في محله.

- حينما كنت بالصين كان جزء من برنامجي الدراسي أن اذهب إلي السجون لإلقاء دروس توعية للسجناء هناك، أختاروا لي سجن المراهقين لأنهم الأقرب إلي سني، كنت دائما أنظر إلي تلك الوجوه الشابة التعسة وأقل لهم أنتم نتاج إختياراتكم ، لا تلوموا الظروف والإمكانيات طوال الوقت، الظروف لم تسألك النوم لساعات طويلة فوق المعتاد ، الظروف لم تسألك أن تاكل مأكولات تضر بصحتك، الظروف لم تفرض عليك صديقا بعينه.

سألها في دهشة :

- يبدو أنك مررت بالكثير وشاهدت الكثير.

- لا ، المعتاد ، ولكني أقرأ كثيرا حتي أتعلم عن العالم كما أنني أسافر كثيرًا

- حقا ، أي البلاد كنت من قبل غير الإمارات ؟

- سنغافورة، ماليزيا ، فيتنام وغيرها

- هذا جدير بالإعجاب

- وأنت؟

- انا فقط أندونيسيا والإمارات

- أنت لديك وظيفة رائعة وعمل جيد كما أنك تبدو إنسانًا جيدًا ، هذه الكثير من الامور الحسنة لتحافظ عليها، ربما أصعب شيء عليك أنك أفغاني ولكن اتمني لبلدك أن تجد السلام يوما ما.

كنت يهم بأن يعترف لها أنه قد كذب عليها وأنه باكستاني وليس أفغاني ولكنه تراجع عن ذلك، لا يريد أن يظهر أمامها بأنه كاذب، ولكن هل ستعتبره كاذب ؟ بالعكس ستعتبره صادق معها الأن بعدما كان كاذبا ولكن ماذا لو أن إعترافه لها بأنه كذب سيلقي ظلالا من الشك لديها عن كل ما يقوله لاحقا، الأمر معقد، كما أن الأفضل لها أن تسير بأعتقاد أن الأفغان صادقون علي أن تعتقد ان الباكستانيون كاذبون، وفي كل الأحوال، هذا الأعتراف لن يغير من ما بينهما شيء، هو لا يدرك الفرق بين البورندي والرواندي، الاثنان بالنسبة له أفارقة سود.

طال بهما الحديث وتشعب ، عرض عليها أن يشاهدا فيلما سويا، فقبلت بترحيب، هذه الفتاة تحب صحبته بلا شك، إنتبه أنها لم تزال بملابسها الداخلية ولكن إنهماكه في الحديث أنساه أنها بهذا الشكل، صار جسدها عاديا بالنسبة له، تري هل لم تعد تثيره ؟ أم أن صداقته الجديدة لها محت علاقته القديمة معها ؟ تري هل تاب حقًا ؟ يود ذلك في قرارة قلبه لعله يكون قد عاد إلي روضة ربه وقبله بها.

قام بإستحضار فيلما من مكتبته، كان كلاسيكيا في أفلامه ، قام بتشغيل فيلم (القافز) وأستمتع به معها كثيرا، رأها تنظر للفيلم وكانها مسحورة وبين حين وأخر

تمد يدها لتأكل من فاكهة وضعها أمامهما، مر بالفيلم مشهد ساخن للبطل مع صديقته، عادة في مثل تلك المواقف حينما يمر مشهد مشابه ، يتحرك الشيطان ليوقظ الغرائز وتلتحم الأجساد، وهو هنا وهي أيضا وبالتأكيد الشيطان ليس ببعيد ولكن من سيبدأ الخطوة الأولي ؟ هو لن يفعلها ، حافظ علي ضبط نفسه، وهي لم تبدي أي تغييرًا في وجهها أو تعلق علي المشهد حتي مر بسلام ، ربما كان الشيطان نائما او وكل أمرهما لهما.

في منتصف الفيلم توقفت لترد علي مكالمة هاتفية، تحدثت بالصينية مع سيدة ما في غضب لدقائق قبل أن تلين ملامحها وهي تتحدث بهدوء ثم تغلق الهاتف وتنظر له مخرجة لسانها كالعادة ثم تقول :

– لقد تصالحت مع مديرتي ، لدي عمل الأن وعلي الذهاب.

قام متثاقلًا وهو يصطحبها إلي سيارته لتوصيلها إلي المكان الذي أقلها منه، في الطريق كانت منشغلة بالكتابة علي تطبيق ما لعدة أشخاص، نظر لها نظرة خاطفة قبل أن يركز في قيادته وإن تنازعته عدة أفكار.

لقد حضرت إلي بيته هذه المرة ولم يحاول معها فهل معني هذا أنه قد تاب حقا أم زهد منها ؟ لن يعرف أبدا ، تري هل لو حاول معها وصدته يعتبر هذا ذنبا أم أن الذنب فقط بإقترافه حتي النهاية؟ تري ماذا لو حاولت معه وصدها أيعتبر هذا تكفيرا عن ذنبه السابق معها ؟ تلك أسئلة لن يعرف إجابتها أبدا.

مشكلة علماء الدين أنك حين تلجا لهم بحثا عن إجابة وافية لمثل تلك الأمور لا يفيدونك بشيء علي الأطلاق، إجابات عامة لا تغيث الملهوف، عبارات مطاطة لا تنقذ الغريق، هم لا يعرفون وبالتأكيد لن يثق بشيخ أفاق يخبره أن اذهب فقد غفر لك ، وإلا لأودي بنفسه الي التهلكة، يود أن يتعرف علي شيخا بينه وبين الله حبل متين حتي يسأله ويثق بإجابته ، عليه البحث عن أحدهم فهو يريد إجابة شافية.

تسائل أيضا هل يشعر بإرتياح وهو يقل الفتاة الأن إلي مكان يعلم أنها ستمارس فيه خطيئة كبري ؟ هو مضطر لذلك فهو من دعاها وعليه إعادتها إلي حيث جاء بها، وبعدها هي وشأنها تخطيء أم تصيب، هو ليس وصيا عليها ولو نصحها بالا تفعل وسألته عن البديل فليس هناك من إجابة وافية لها.

ضغط علي أعصابه حتي يركز في طريقه، تفادي سيارة قائدها أرعن، هم أن يسبه ولكنه لم يشأ أن يظهر فظ اللسان أمامها فتطوعت هي بالأمر وألقت بعض السباب بالصينية نيابة عنه، لم تترجمه له بالطبع.

حينما أوصلها الي مكان عملها، رأها تحمل حقيبتها وتغادر وهي تشير بيدها الي أذنها بعلامة أن يبقيا علي اتصال، فهز رأسه موافقا وهو ينسحب بالسيارة في هدوء.

حينما عاد إلي منزله أخيرا ، القي بجسده المتهالك علي الأريكة، يشعر بالتعب الشديد من جراء اليوم، تسائل هل نجح في الأختبار الذي وضعه لنفسه ؟ هو لم يمس الفتاة ولم يقترب منها ولم يحدث نفسه بشيء عليها طوال الوقت إلا في تلك الثانية حينما مر بهما المشهد الساخن

لا يعلم إن كانت تلك الثانية قد أضعفت عودة التوبة ام لا، تري ما الذي عليه فعله للتأكد ان الله قد قبل توبته ، لا توجد علامة واضحة حتي الأن، لقد فاتته صلاة أثناء وجوده معها وتكاسل عنها الأن، لو قبلت توبته لانضبط صلاته ، إذن التوبة لم تقبل.

همس محادثا ربه " حتي متي يا الله ؟ " شعر بصوت يجاوبه من الداخل لا يدري هل صوت نفسه أم صوت شيطانه يحادثه أو ربما يكون إلهام من ربه " حتي تصل الي سنام التقوي"

سمع من شيخه سابقا أن سنام التقوي معناه أن يخرج العبد كل ما في قلبه أمام الناس فلا يستحي منه، يا رباه كيف له هذا المستوي من التقوي ؟ لا يستطيع، لو أخرج كل ما في قلبه لنفر الناس منه ، من من البشر حاليا بلغ درجة أنه ليس في قلبه ذنوب أو نية خطايا أو نميمة أو غل أو بغض أو حسد أو غيرها من الأمور.

وحتي لو طلب ذلك المستوي من التقوي، لن يجده هنا ولن يجده في نمط حياته المادي المتسارع ذلك، هو يريد وظيفة أخف وطأة ومكان اكثر هدوءًا

شعر بالحنق أنه لا يستطيع تغيير تخصصه، هو نهم للنساء ويعمل بطب النساء، لا يستطيع العودة والبدء من جديد مع طب الأسنان مثلا أو العيون ، الأمر مثل طريق ليس به رجعه ولكنه يأمل بإصلاح حاله في الطريق

قام من رقدته قبل أن يتكاسل أكثر وتوضأ من أجل الصلاة، قام يصليها بكل ما أوتي من خشوع، حاول أن يبكي وهو يسأل الله الهداية والمغفرة ولكنه لم يستطع أن

يرغم عيناه علي قطرة واحدة من مطر الندم، تري هل تحجر قلبه أم أن المعصية قد ختمت علي روحه بسوادها.

أنهي الصلاة ومكث واجما لبرهة، انتبه إلي أن زوجته لم ترسل له أي رسائل حتي الأن علي خلاف عادتها، تري هل هي منشغلة أم منصرفة عنه ؟ وبمن تنشغل عنه ؟ هل هناك من رجل أخر ؟ حذار يا (شهيدة) هكذا همس لنفسه قبل ان يبكي

أرسل لها رسالة يخبرها أنه يود الحديث معها، لم يسمع منها ردا حتي مرت ساعة عليه واوشك موعد نومه علي الأقتراب ، قبل أن تطل عليه ، رغم فرحته بظهورها إلا انه صب غضبه عليها لتأخرها في الرد فكانت ان قالت بأنها كانت بالمستشفي لأن إبنته الصغيرة مريضة للغاية.

يا للهول، ما الذي أصابها هكذا سأل (شهيدة) فأجابته :

– الطبيب يقول أنها حساسية شديدة وستستمر معها لفترة طويلة

شعر في قرارة نفسه أنه ربما الله يعاقبه في أولاده علي خطيئته الأخيرة وناجي ربه في نفسه " لهل حقا تعاقبني يا رب بمرض اولادي، ما ذنب المسكينة الصغيرة ـ، عاقبني أنا، أمرضني انا ، أو اجعل العقاب في شيء أخر مثل المال أوالأمتعة، جسد الصغار لا يحتمل الألم "

شعر بالسخف وهو يناجي ربه بهذا الشكل فقال معتذرا:

" معذرة يا رب العالمين ، لله الأمر من قبل ومن بعد، اغفر لي يا الله ونجني وأهلي من عملي السيء ، بالتأكيد أنت ارحم الراحمين ولن تزر بوزري جسد اطفالي وأعدك ألا اعود لمثلها ما حييت "

رغما عنه تدفقت دموعه عند هذا الخاطر حتي أنه اكمل حديثه مع (شهيدة) ونهر عينيه يجري ما بين خديه حتي طلب منها ان يتوقف عن الحديث لأنه متعب ودموعه علي خده.